

"إعادة مد الجسور مهمة صعبة"

مقابلة مع عبد الله بن سعيد أجراها معه برغيت مينيل وستيفان نوفوتني ترجمة: خال ولد قاسي

شعار موزيك أفونير هو: الموسيقى تلين الجدران. من جهة أولى، في هذا الشعار إشارة إلى جان جاك روسو الذي أجاب في القرن الثامن عشر على سؤال عما إذا كانت العلوم والفنون تلين القلوب. ومن جهة أخرى، فيه إشارة أيضا إلى جدران أحياء الضواحي. في البداية، هل لك أن تعطينا فكرة أوضح عن معنى هذا الشعار في سياق عملكم؟

في الأصل قمنا بتركيب العبارة انطلاقا من عبارة روسو، وكان الهدف من ذلك اللعب بالكلمات. ولكن الذي دفعنا إلى صياغة شعار "الموسيقى تلين الجدران" هو أن الكثير من أعضاء جمعيتنا جاؤوا من الأحياء التي توصف بأنها "حساسة". وهناك عبارة شائعة في تلك الأحياء هي "الاتكاء على الجدران" أي عندما يكون الشباب عاطلا نقول إنهم يتكئون على الجدران. هذه هي العبارة التي أصبحت شائعة. وكثيرا ما نسمع عن هؤلاء الشباب الذين يتكئون على الجدران أنهم يثيرون المشاكل. إذا، صحيح أن الهدف الأول هو الإشارة إلى عبارة روسو ثم الإشارة إلى أنه يمكننا عبر الفن أو الموسيقى أو حتى إنشاء روابط بين الناس تهذيب بعض الجوانب في بعض الأشخاص.

في الواقع، يبدو أن الموسيقى - ولا سيما الراب - تلعب دورا مهما في إنتاج الخطاب الذي يتحدث عن الحياة في الضواحي، وفي إنتاج خطاب غالبا ما ينتقد بشكل صريح الصور النمطية المنتشرة عن تلك الحياة والتي يروج لها السياسيون ووسائل الإعلام الرئيسية. كيف ترى الأهمية الخاصة التي يكتسبها الإنتاج الموسيقي في هذا السياق المزدوج وخاصة إذا ما أخذنا في الاعتبار تاريخ الهجرة وحقبة ما بعد الاستعمار؟

بالنسبة لي، فإن الراب كغيره من التعبيرات الفنية يسمح بالتعبير عن كثير من الأشياء. إذا نظرنا إلى تاريخ الراب نرى أن أغلب المغنين جاؤوا من مكان يتميز بخصوصية. في الولايات المتحدة مثلا، أغلب مغني الراب جاؤوا من غيتوهات السود الأمريكيين. وطبقا لهذا المنطق، هنا في فرنسا، فإن الناس تأثروا كثيرا بتلك الغيتوهات ويشعرون بالقرابة منها، فهم "مهمشون" بنفس الطريقة التي "يهمش" بها السود في أمريكا، نظرا إلى طبيعة الأحياء التي جمعوا فيها أي الغيتوهات. إذا، نعم، مغنو الراب الشباب الذين سيأتون إلى موزيك أفونير سينشغلون بما ينشغل به "الأشخاص المنحدرون من الهجرة"، إذا كان أولياؤهم من المهاجرين، لأنها اشغالات كبيرة رافقتهم طيلة طفولتهم، وبالتالي ستصبح من أولى انشغالاتهم. بالإضافة إلى ذلك، فالشيء الذي يتميز به الراب هو أنك تحتاج إلى أن يصدقك الناس وأن تتحدث عما يجول في صدرك. ما يجول في صدور الشباب هو ما يعرفونه والمكان الذي يعيشون فيه أو عاشوا فيه، المكان الذي يعانون فيه من بعض المشاكل نوعا ما، وهذا ما سيسعون إلى التعبير عنه قدر الإمكان.

غير أن الراب الناقد غائب تماما في وسائل الإعلام الرئيسية. فالراب اليوم أصبح سلعة تجارية كأي موسيقى أخرى، الهدف منه البيع فقط. الآن أصبح الناس ينتجون وينتجون ثم ينتجون مبتعدين عن الرسالة الأصلية للراب، فقد أصبح همهم الوحيد إرضاء الذين يبتون الموسيقى. وعليه فإن ما نراه اليوم في قنوات التلفزيون لا علاقة له بالرسالة الرئيسية للراب. عندما ظهر الراب، كان شيئا جديدا، وكان مغنو الراب قلة لكنهم كانوا يتوصلون إلى بيع ما ينتجونه وكانوا يستقطبون الجمهور دون الحاجة إلى الذين بيدهم وسائل البث، بل على العكس كان أولئك الأشخاص هم الذين يتبعون المغنين. أما الآن، الجميع يغني الراب، وكل ما على وسائل الإعلام فعله هو أن تختار من هو الأقدر على ضمان أكبر عدد من المبيعات.

لكن الراب الواعي ما زال يستمع إليه من قبل الشباب وحتى الكهول. بالنسبة للأجيال التي تتراوح أعمارها بين 25 و30 سنة أغلبهم يستمعون إلى الراب الذي يغنيه مغنون من أمثال كيسي Casey أو مدين Medine أو كيري جيمس Kery James. ويمكننا أن نعرف إذا كان الشخص ملتزما سياسيا من خلال ما يستمع إليه. إذا كان الشخص غير مهتم إطلاقا بالسياسة فلن يبحث عن أغاني راب ملتزمة. لكن أظن أنه رغم ذلك يمكن أن يكون لمغني الراب تأثير كبير، إلا أن أغلبهم اليوم يتجنبون التحدث عن توجهاتهم السياسية باستثناء أولئك الذين ينتمون إلى أقصى اليسار. لكن ما عدا هؤلاء من النادر أن يتطرق أحد إلى التزامه السياسي. كان ذلك شائعا من قبل لكنه أصبح نادرا الآن. على سبيل المثال، عندما كنت مراهقا، كنت أستمع إلى أغنية عنوانها « 11:30 minutes contre les lois racistes » (11:30 دقيقة ضد القوانين العنصرية): صدرت هذه الأغنية بعد صدور "قانون دوبريه" بشأن الهجرة في 1997، وكانت أغنية نضالية كان كل الشباب يستمعون إليها، إذ حتى وإن كان عمرنا لا يتجاوز الخامسة عشرة كنا نهتم بالسياسة بعض الشيء. لم نكن متوغلين في السياسة لكننا كنا نعرف ماذا كان يمثل كل واحد.

أما الآن، فقد أصبحت السياسة تحتل مكانة أقل أهمية، لأنهم يهتمون الشباب بأن السياسة ليست من الأولويات، وأنه عليهم اتباع ما يطلب منهم اتباعه. في رأيي كل هذا يدخل في إطار واحد: في التلفزيون يبتون أشياء تافهة لكي يشاهد الشباب أشياء ليس لها معنى، ولكي لا يهتموا بشيء سوى جمال فتاة أو رجل ومن يصاحب من ومن يضاجع من... هذا ما يعرض الآن للشباب كأولوية، أما في السابق لم تكن تلك الأشياء من أولويات الشباب. الآن، أصبح الناس يهتمون باسم ابن ساركوزي أكثر مما يهتمون بسياسته. وبطبيعة الحال فالشباب أيضا وقعوا في الفخ.

وبالتالي أظن أن مغني الراب يمكنه أن يؤثر في الشباب. ولناخذ على سبيل المثال أغنية كيري جيمس¹ التي تتحدث عن المخدرات لكي يروي لنا كيف فعل لكي يقلع عن تدخين القنب الهندي. وأنا أعرف الكثير من الشباب الذين أفلعوا عن التدخين بعد الاستماع إلى هذه الأغنية. وعندما بلغ جان ماري لوبان الدور الثاني من الانتخابات الرئاسية مع شيراك وكان علينا أن نختار بين ضررين أخرج العديد من مغني الراب أغنية ليقولوا فيها إنه من

¹ أغنية « Nuage de fumée » من ألبوم « La cerise sur le ghetto » (2003) لفرقة Mafia K'1 Fry

الأفضل أن نصوت لليمين على أن نترك أقصى اليمين يصل إلى السلطة² - وفي الأخير ذهب الشباب لينتخبوا بأعداد كبيرة. لكنني أعلم بطبيعة الحال أن هناك من يتأثر بكلمات المغنين الذين يتحدثون عن السيارات الفخمة كالفيراري واللامبورغيني وعن كسب الأموال الطائلة. هناك شباب يستمعون إلى تلك الأغاني ويرغبون في كسب الأموال أيضا. وهذا أيضا من الأمور التي تبعث على الخوف. تعطى الأهمية لأشخاص ليس لديهم ما يقولونه أو يقولون أشياء تافهة بدلا من أشخاص آخرين، لأن خطاب الأشخاص الذين لديهم قدرة على التأثير، حتى وإن لم يتمكنوا من تغيير وجهة الأحداث يمكنهم على الأقل إحداث تغيير في بعض الأشياء.

لنعد إلى موزيك أفونير: ما هو هدف عملكم؟ وما هي طرق الإنتاج والتعاون التي تتبعونها؟

هدف عملنا هو أن نخلق جسورا بين "عالم الشباب" و"عالم المؤسسات"، لأننا نلاحظ شرخا بين هاذين العالمين: في بعض الأحياء أصبحت الثقة غائبة تماما تجاه المؤسسات. وذلك رغم أن المؤسسات يمكنها أن تفعل الكثير للشباب، وهؤلاء بدورهم يمكنهم أن يفعلوا الكثير للمؤسسات. ونحاول من خلال موزيك أفونير أن نعيد بناء هذا الجسر الذي اختفى تماما، ونحاول أن نعمل على أن يتعايش هاذان العالمان لكي تتغير الأوضاع، خاصة أوضاع الشباب. ولقد اخترنا الموسيقى كوسيلة لإنشاء روابط، لكن إضافة إلى الموسيقى نعتمد على جملة من الأساليب البيداغوجية الاجتماعية للسعي إلى تحقيق هذا الهدف. هناك شرخ حقيقي بين بعض الشباب و"المجتمع" عموما. لذا يجب إصلاح الروابط بينهما لأننا لا نستطيع أن نعيش كمنبوذين إلى الأبد، كأشخاص لا يسيرون مع المجتمع. وعلى المجتمع أن يعيد مراجعة نفسه في هذا الظرف بالذات أي حين يعاني المجتمع من مشكلة ولا يرغب بعض الناس في اتباعه. ولكي يتمكن المجتمع من مراجعة نفسه ينبغي أن يكون هناك أشخاص واعون ويستخدمون عقولهم وليسوا كقطيع الأغنام الذي يتبع الراعي. ونجد أن أغلب الأشخاص الذين ليسوا كقطعان الأغنام هم الشباب، إذ ما زالوا يؤمنون بشيء من اليوتوبيا.

إن أغلب الناس مجبرين على كسب رزقهم ولديهم مشاكلهم الخاصة المتعلقة بالحياة اليومية وبالتالي فإن التزامهم ضعيف. وكثيرا ما نسمع أن الالتزام يكون قويا عندما نكون في سن الشباب، وفي بعض الأحيان إلى حد التضحية بالروح. وعندما نكبر في السن تصبح لدينا مزيد من المسؤوليات ونحاول التعامل مع الأوضاع مع الحفاظ على الالتزام، لكن نحاول التكيف مع الأوضاع رغم ذلك. إذا، هذا هو هدفنا باختصار: نحاول توعية الشباب ليدركوا أن المجتمع موجود وأن علينا أن نتكيف معه سواء كنا منبوذين أو لا، لأن المجتمع سيحكم علينا. وبالتالي ينبغي السعي إلى الدخول إلى هذا المجتمع، وهذا لا يعني الذوبان فيه وأن نفعل مثلما يفعل الجميع، بل يجب السعي إلى بناء شيء ما: إما تغيير المجتمع أو جزء منه وإما بناء شيء يكون متوافقا معنا ومع المجتمع في آن واحد. إذا تركنا أنفسنا تنقاد وراء "الكبار" و"الحكام" فليس أمامنا من خيار سوى الاتباع وعندئذ لن نتمكن من التعبير عن أفكارنا الشخصية.

² أغنية « La lutte est en marche » من ألبوم « 3 Sachons dire non » (2003)

نحاول في موزيك أفونير إعادة مد الجسور وأن نبين للشباب أنه بإمكانهم التفكير كما يحلو لهم، علما أننا في فرنسا ولسنا في بلد يحكمه الجيش حيث لا توجد حرية التعبير. هنا، يحق لنا التفكير كما يحلو لنا ويمكننا في الوقت ذاته أن نحاول التقدم داخل المجتمع وألا نكون منبوذين وألا نشعر بأننا مهمشين، لأننا حتى وإن شعرنا بأننا مهمشين يمكننا دائما إعادة الركوب في سفينة المجتمع.

فيما يخص الروابط التي نتحدث عنها، ما هي الآليات التي تجعل إنشاء مثل تلك الروابط أصعب مما إذا كنا في مكان آخر إن لم تكن سببا في تحطيم الروابط الموجودة في الضواحي؟

الشيء الذي يمكن أن يحطم الروابط هو نقص الثقة والأموال. لأنه قد تكون لدينا كلمات جميلة لكن إذا لم نعمل على أن نتقدم الأمور يفقد الناس الثقة. والشيء الذي يمنع الأمور من أن تتقدم هو نقص الثقة: هذا ما يؤخر بعض المشاريع والرغبة في القيام ببعض الأشياء. إنها حلقة مفرغة تزداد تفاقمًا. لكن الشيء الذي يؤخر الأمور أكثر من غيره هو انعدام الثقة. فكما قلت سابقًا، الشباب اليوم لم يعودوا يثقون في النظام القائم. وحتى عندما يحاولون أن يثقوا فيه يكتشفون أن الآخرين يحاولون تهميشهم. على كل حال، هذه هي الحالة التي يوجد فيها الشباب الذين أعمل معهم. وكنتيجة لذلك، يفضلون الاعتماد على أنفسهم فقط بدلا من طلب المساعدة سواء من الدولة أو أي جهة أخرى. وعندما يفقد الشخص كل ثقة في غيره من الصعب أن نقول له "لا تقلق، سنحاول أن نثق من جديد".

من الصعب للغاية إعادة بناء الروابط. يمكن القيام بذلك بشكل غير ملحوظ وفي بعض الأحيان يمكننا أن نتساءل "هل من الضروري بناء الروابط"، لأننا قد نتساءل أيضا: "هل المؤسسات المعنية ستتجاوب بصفة فعلية". عندما أتحدث عن "المؤسسات" فأنا أضعها بين قوسين بما أن الأمر يتعلق في الواقع بالمجتمع الذي يجب علينا أن نندمج معه "لنتمكن من العيش" و"بناء أسرة"، إلخ. والأوضاع حاليا لا تسمح بأن نثق في المجتمع، خاصة مع وجود بعض التدابير السياسية التي تهدف إلى إقصاء جزء من المجتمع أو تقييده. وما يجعل الأمر صعبا أيضا، هو عندما نشاهد التلفزيون، في الأخبار أوبعض البرامج، حيث تشير أصابع الاتهام دائما إلى أبناء المهاجرين، شباب الضواحي، المسلمين....، ويتهمون فيها بشتى الاتهامات. ويتلقى الشباب الكثير من الأخبار التي تقول لهم بصفة مختصرة إن كل ما يمثلونه سيء. كيف لهم إذا أن يقوموا بالخطوة الأولى عندما يهانون.

سأعطيك مثالا. عندما كنا في بولندا، كان كل شيء على ما يرام، إلا أن الكثير من الأنظار كانت تتجه إلينا لأن معظمنا سود البشرة. صحيح أنه نادرا ما ترى أفارقة وسودا في بولندا وتلك الأنظار... لم تكن تعبر عن العنصرية بل كانت تعبر عن الاستغراب. لكن لكي نفهم الجميع بأن ذلك لم تكن له علاقة بالعنصرية بل كان صادرا عن الاستغراب كان علينا أن نتحرك ونبذل جهدا كبيرا لنقول لأنفسنا "لا، لا ثم لا، يجب أن نتشجع لنذهب نحو الناس وعندها سندرك أن تلك الأنظار ليست لها علاقة بالعنصرية، ليست عنصرية". وفي اليوم الثاني، صادفنا مجموعة من حليقي الرؤوس، وهؤلاء كانوا عنصريين بأتم معنى الكلمة، وحينها كان علينا أن نعيد النظر في بعض الأمور، لأنهم كانوا عنصريين حقا. لكن كيف يمكننا أن نميز بين الأشياء؟ هل يمكننا أن نقول لأنفسنا "هؤلاء عنصريون وهؤلاء ليسوا عنصريين" بما أن الشيء الذي يخيف الناس في الوهلة الأولى هو الغرابة، ليست غرابة الأجنبي كأجنبي بل غرابة الشخص الذي لا نعرفه؟ هذا يعني أنه إذا كان الناس يخافون مما

لا يعرفونه من الصعب عليهم التوجه نحوه. ونحن كذلك لم نكن نعرف الثقافة البولندية، فكان علينا أن نبذل جهدا للتوجه نحوهم.

والشيء نفسه ينطبق على المجتمع. فمجتمع اليوم لم يعد يعرف الشباب، ولم يعد يعرف ماذا يحدث في الضواحي. والوزراء أو نواب البرلمان يجهلون حتى ثمن رغيف الخبز لأنهم لا يعرفون الناس. فهم لا يمارسون السياية إلا لفئة معينة من المجتمع، أما الباقون فيتم تجاهلهم وتهميشهم. ولا تتم استشارتهم إطلاقا. في مثل هذه الظروف، يصعب تصديق السياسة أو المجتمع. كيف يمكننا أن نؤمن بمجتمع "مثالي" عندما يهمل هذا المجتمع الكثير من أبنائه؟

حدثتنا عن سفركم إلى بولندا حيث تقيمون شراكات. ما هي الآفاق التي تتيحها مثل هذه الشراكات؟ وما هي الصعوبات المرتبطة بالتواصل وبخصوصية الأوضاع المعاشة وبالإمكانيات المتاحة لإجراء تبادل بشأن هذه الأوضاع المختلفة؟

فيما يخص سفرنا إلى بولندا، لم تشكل اللغة حاجزا حقيقيا، بما أننا كنا نلجأ إلى الانجليزية، وحتى وإن لم نكن نتقنها كان بمقدورنا أن نتواصل. لأن التواصل ممكن عندما تكون هناك رغبة في التواصل مع الآخر، عندما نرغب في التوجه إليه. أتذكر على سبيل المثال حادثة عشتها عندما سافرت إلى مصر حيث تعرفت على شخص لم يكن يعرف سوى العربية في حين لم أكن أتحدث سوى الإنجليزية والفرنسية: وتمكننا رغم ذلك من تبادل أطراف الحديث لأكثر من نصف ساعة بعدد قليل من الكلمات الإنجليزية والعربية، وبعد ذلك وجه إلي دعوة لأسكن في بيته لمدة عام إذا أردت أن أتعلم العربية. كان ذلك شيئا مذهشا. وما حدث في بولندا كان مشابها تماما لذلك. كنا نتوصل إلى التحدث رغم أننا لا نعرف البولندية، وتمكن الشباب من إحياء حفل أمام جمهور لا يعرف الفرنسية. فقد كانت الحركات هي الوسيلة الوحيدة للتواصل.

ما حدث في بولندا دليل على أنه من الممكن تغيير بعض الأشياء. وإذا تمكنا من التواصل مع أشخاص ليست بيننا وبينهم أي لغة مشتركة فيمكننا إذا من باب أولى أن نتواصل مع سياسيين أو أشخاص نتقاسم معهم لغة مشتركة.

وهذا يبين في رأيي أنه على الطرفين، السياسيين والشباب، بذل جهد لكي يزول الخوف من بعضهم البعض. لكن يجب أن تكون هناك رغبة في التواصل لدى الطرفين. غير أنني وللأسف الشديد، لا أشعر بأن هناك رغبة في التواصل لدى أي من الطرفين، وأظن أن هذا الوضع يرضي كليهما...

في رأيك، هل يمكن للموسيقى أن تسهل التفاهم بين مختلف الأطراف، ربما لأن الموسيقى ليس فيها كثير من التسلسل الطبقي؟

في رأيي، الفن عموما يسمح بتخطيم الجدران. في بولندا، على سبيل المثال، حضرنا حفلا كان فيه عازفو أكورديون دون غناء، ودون كلمات، فكانت الموسيقى اللغة الوحيدة. واقترح علينا العازفون أن نصعد على

الخشبة لنغني أغنية معهم بصفة ارتجالية. لكن كل ذلك، أي دعوتنا إلى الصعود على الخشبة وأخذ الميكروفون والغناء، تم بدون كلمات. بالنسبة لي، الفن يسمح لنا بفعل أشياء جميلة وبتحطيم الجدران. عندما نرى أن هناك فنانين شباب يقومون باستعراض فنهم في كل أنحاء العالم ويأتي الجمهور ليشاهدهم حتى وإن كان يجهل لغتهم... أنا أرى أن ذلك شيء جميل. ونستغرب بعد ذلك عندما نرى سياسيين يعرفون بعضهم البعض ويتحدثون لغة واحدة لكنهم لا يتفاهمون فيما بينهم.

لقد رأيت ربوتاجا عن شباب فلسطينيين وإسرائيليين يلعبون الكرة معا من خلال الجدار، وفي الواقع كانوا يمررون الكرة من فوق الجدار. أنا أرى أن هذا شيء جميل جدا. وفي هذه الحالة أصبحت الرياضة هي لغة التواصل، لكن هنا أيضا أصبح اللعب ممكنا لأن الشباب كانت لديهم رغبة في التواصل فيما بينهم. عندما تكون هناك رغبة في القيام بشيء مع الآخر فكل شيء ممكن، بحسب اعتقادي.

سؤال أخير سبق لنا وأن طرحناه على صونيا (شيخ) ونود أن نطرحه عليك: ماذا كان الدور الذي لعبته أحداث خريف 2005؟ هل غيرت بعض الأشياء وفي أي اتجاه؟

أعلم أن هناك هيئات سياسية أرادت إعطاء مزيد من الأموال للضواحي لتعزيز النشاطات الفنية. لكن ذلك لم يغير شيئا في نظرة الناس إلى الضواحي. أما فيما يخص الشباب، فالذين كانوا أصغر سنا ربما كانوا يرغبون في أن يعيشوا تلك الأحداث وتمثيل حيهم قائلين "نعم، حيي فعل هذا". لكن ذلك في حد ذاته لم يحدث تغييرا كبيرا، لأننا مازلنا في النقطة ذاتها ومازلنا نعيش المشاكل نفسها: الناس خارج الضواحي لا يعرفون شيئا عن الضاحية، فهم لا يعرفون عنها سوى ما يشاهدونه في قنوات التلفزيون أو ما يقرؤونه. غير أن التلفزيون وما يكتبه يخلق لدى الناس الشعور بالخوف، ذلك الخوف الذي كان موجودا من قبل. لا، في رأيي كل ما تسببت فيه تلك الأحداث هو تعزيز الشعور بالخوف والتصورات الخاطئة.

لمطالعة كل نصوص مجلتنا الإلكترونية عن "لغات الضواحي" – المتوفرة أيضا بلغات أخرى – يمكنكم زيارة هذا الموقع:

<http://eipcp.net/transversal/0113>